الطابع الإنساني للمرأة في شعر السيّاب

بدر شاكر السيّاب

The human theme of women in Al-Sayyab's poetry

Badr Shaker Al-Sayyab

د. هاشم صيهود محمد الميّاحي
الكلية التربوية المفتوحة – بابل

Dr. Hashem Seyhood Mohammad almayahi
The Open Educational College - Babylon

dhashim1964@gmail.com

تاريخ الاستلام ٢٠٢٢/٤/٢١
تاريخ القبول ٢٠٢٢/٥/١٥

الكلمات المفتاحية: الطابع الإنساني، المرأة الرمز، مدينة السندباد، الانبعاث، حدائق وفيقة، أساطير

Keywords: the human character, the symbolic woman, the city of Sinbad, the resurrection, Wafiqa gardens, legends

الملخص

لاشك فيه إن المرأة كانت ومازالت تشكل محوراً أساسياً في حركة الشعر العربي منذ ولادته والى يومنا هذا، والسيّاب الذي يعد واحداً من أبرز الشعراء الذين جددوا في مسيرة الشعر العربي الحديث قد طرق باب المرأة أماً و زوجةً وحبيبة وقد أبدع في إبراز صورتها الإنسانية بأشكالها المتعددة تلك، وقد انعكس ذلك على نتاجه الشعري الغزير والخصب في آن واحد، فلم تعد المرأة في شعر السيّاب تمثل صورة حسية فحسب بل شكلت مساحة اكبر في تكوينه الشعري بل والإنساني فهي نبع الخير والعطاء وهي مصدر الهام الشاعر في كثير من الأحيان، من هنا جاء البحث على بساطته ليسلط الضوء على اهم المحطات الرئيسة التي توقف عندها السياب شعراً في المرأة ابتداءً من طفولة الشاعر واتخاذه المرأة رمزاً وتوظيفه بالاتجاه الصحيح لخدمة غرضه الشعري وانتهاء بربط الصورة الفنية وتماهيها بقضية المرأة وإبراز أشكالها وألوانها المختلفة إذ دارت تلك الموضوعات حول مبحثين، (المبحث الأول، المرأة بين طفولة الشاعر وبلوغ الشعر) أما المبحث الثاني (المرأة والرمز في شعر السيّاب)

Abstract

There is no doubt that the woman was and still constitutes an essential axis in the movement of Arab poetry from its birth to this day, and Al-Sayyab, who is one of the most prominent poets who renewed the march of modern Arab poetry, has knocked on the door of women as a mother, wife and lover, and has excelled in highlighting her human image in its many forms. This was reflected in his abundant and fertile poetic output at the same time, as the woman in Al-Sayyab's poetry no longer represents a sensual image only, but rather formed a larger space in his poetic and even human composition. Its simplicity to shed light on the most important main stations at which Al-Sayyab stopped poetry in women, starting from the poet's childhood and taking the woman as a symbol and employing it in the right direction to serve his poetic purpose and ending with linking the artistic image and its identification with the issue of women and highlighting its different forms and colors as these topics revolved around two topics, (The first topic, the woman Between the poet's childhood and the puberty of poetry) As for the second topic (the woman and the symbol in al-Sayyab's poetry)

المبحث الأول

المرأة بين طفولة الشاعر وبلوغ الشعر

لما كانت المرآة منذ الخليقة والى يومنا هذا تدير عجلة الحياة جنباً الى جنب مع الرجل وهذا ديدنها فهي كذلك مع الشاعر " فالمرأة بالنسبة للشاعر هي مولد كهرباء .. فطالما ظلّ هذا المولد شغالا، وقادراً على توزيع الضوء و الحرارة في اطراف الشعر وفي فكره، واحلامه ... فإن المرأة تبقى على قيد الحياة .. والقصيدة تبقى على قيد الحياة، المرأة لا تنطفيء في عيني الشاعر، الا اذا دخلت في التكرار والتشابه وتحولت إلى شريط تسجيل "[1] هكذا كانت المرأة في مخيلة السياب وهكذا تجسدت المرأة في ازهى صورها وهي تحتل مساحة في خارطة شعره وبقيت حتى انطفأت جذوة كلماته الأخيرة في ذلك اليوم الرابع والعشرين من كانون الأول عام ١٩٦٤، فبعد ولادة السياب عام ١٩٢٦*، عاش الأعوام الأولى من طفولته سعيداً، إلى ان حصلت معه حادثة مفجعة ألمّت به وكان لها أثر كبير عليه طوال حياته وربما شكلت فيما بعد انعطافه خطيرة في مسيرته الأدبية، ففي عام ١٩٣٢ والشاعر في السنة السادسة أو السابعة من عمره توفيت والدته وهي تضع مولوداً وتركت بدراً وأخوين يصغرانه سناً، وبعد ثلاث من السنين تزوج أبوه امرأة أخرى ورحل عن القرية، فعاش بدر في كنف جدّيه لأبيه محروماً من عطف الأم والأب، هذه الطفولة القاسية والتي تمثلت برحيل امه ولّدت في نفس بدر نقمة على الدهر لازمته في مراحل حياته جميعاً وفي ذلك يقول وهو يُمني النفس بإنبعاثها بعد ان راح الكبار يقولون له كذباً انها تعود بعد غد، فيقابلها ايمان حتمي بالإنبعاث في قوله (لا بد ان تعود) وكأنه يرفض ان يصدق ان الموت نهاية للحياة، فهذا أسلوب آخر من أساليبها لان امه ما زالت تأكل وتشرب المطر .[2]

---

[1] لعبت بإتقان وها هي مفاتيحي، نزار قباني، ط١، ١٩٩٠، منشورات نزار قباني، بيروت، ص٢١٠ .

* تشير أحدث الوثائق والمصادر ان ولادة الشاعر السياب كانت في عام (١٩٢٧) وليس التأريخ الشائع في أعلاه،ينظر : بدر شاكر السيّاب الاعمال الشعرية الكاملة، ج١ / تحقيق : علي محمود خضير، تقديم : ادونيس، منشورات الرافدين، منشورات تكوين لبنان، الكويت، ط١، ٢٠٢٠، ص٣٣.

بينما أشارت أكثر المصادر القديمة الى ان الشاعر بدر شاكر السياب ولد في ٢٥ ديسمبر ١٩٢٦ ومنها ديوان بدر شاكر السياب، المؤلف : تقديم ناجي علوش، دار العودة، بيروت، ١٩٩٧، ص١٩.

[2] ينظر : بدر شاكر السياب، ريتا عوض، ط٣، ١٩٨٧، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص١١.

ونلمس ذلك في إحدى مطالع قصيدته الشهيرة (انشودة المطر) يقول :

مطر ...
مطر...
مطر ...
تثاءبَ المساءُ، والغيوم ماتزالْ
تسحُّ ما تسِحُّ من دموعها الثقابْ
كأن طفلاً بات يهذي قبل ان ينامْ
بأن أمهُ . التي أفاق منذ عام
فلم يجدها . ثم حين لجَّ في السؤال
قالو له : (بعد غد تعود)
لابُدَّ أن تعود
وإن تهامسَ الرفاق انها هناكْ
في جانب التلِّ تنامُ نومة اللحودْ
تسفُّ من ترابها وتشربُ المطر [١].

وفي قصيدة أخرى نتحسس لوعة السيّاب ومعاناته تلك جرّاء فقده لأمه يقول :

أما رنّ الصدى في قبرك المنهار، من دهليز مستشفى
صداي أصيح من غيبوبة التخدير، أنتفضُ
على ومض المشارط حين سفّت من دمي سفّا
ومن لحمي ؟ أما رنّ الصدى في قبرك المنهار ؟
وكم ناديتُ في أيام سهدي أولياليه :
أيا أمي، تعالي فالمسي ساقيّ وأشفيني [٢]

وصُدم مرة أخرى بوفاة جدّته التي حلّت في ذهنه محل والدته، فصدمه موتها صدمةً عنيفة، وكان ان كتب قصيدة بعنوان (رثاء جدتي) بتاريخ ١٩٤٢/٩/٩ يقول فيها :

جدّتـي مَنْل أبثُ بعدك شكواي طواني الأسى وقـلّ معيني
أنت يامن فتحت قلبك بالأمس لحبي أوصدت قبرك دونـي
فقليل علــيّ ان أذرف الدمع ويقضي علــيّ طولُ أنيني

---

[١] بدر شاكر السياب، الاعمال الشعرية الكاملة، ج١، تحق : علي محمود خضير، تق : ادونيس، منشورات الرافدين، منشورات تكوين، لبنان، الكويت، ط١، ٢٠٢٠، ص٣٨٢ .

[٢] المصدر نفسه، ج٢، ص٨١ .

ليتني لم أكن رأيتــك مــن قبل ولـم ألقَ منك عطف حنـون

آه لو لم تعوديني على العطف و آه لو لم أكن أو تكونــي [١]

وهكذا نجد أنَّ بدراً عانى الأمرّين، مرارة الغربة وهو وسط بيئة ومرارة غربته الأبدية عن امه، وعن ابيه، وعن جدته، اذ كان يعيش في مرحلة أشتد الصدام فيها بين القيم، بين القيم والواقع، لأنه مؤلم، لأنه الموت، لأنه فراق أمه وابيه وجدته، و لأنه خيانة وغدر وبؤس جعلته يفقد الثقة بمن حوله ويتنصل من كل ما يمتُّ بصلة لهذا الواقع المرير فهو لا يريد ان يراه الاّ في صورة أمّه وجدته التي أحبَّ، لقد أحب (لبيبة) وهي تكبره بسبع سنوات، كما جاء في هامش كتبه بخط يده [٢] . ولكنه لا يخاطب (لبيبة) كما يخاطب الحبيب حبيبته، بل كما يخاطب الطفل امه، وهو لا يخاطب لبيبة نفسها، لأنه لا يريد ان يجعل من حبه واقعياً، بل يخاطبُ خيالها :

خيالُك من أهلي الأقربينَ أبرُّ وإنْ كانَ لا يُعقلُ [٣]

وليس هذا غريباً، فهو لايحب إنسانة حيّة، بل يحب خيال انسان وجد فيه القداسة والرقي فهو يرفض ان يدنس نفسه بحب فتاة (الهوى والثرى) يقول :

يامــنْ عُزِّرتُ بحبهـا زمنـاً اليوم أعقب حُبّل الــندمِ

قد كنت أجهل أنّ من لَبِست طهر الهوى بالعُهر تتسمُ

لله مـــا أوحيتُ من نغــمٍ أمن الخيانـــة ذلك النغم

أورثتني شكـــاً بكل هــوى وبكل مــن تسعى بها قدمُ [٤]

وتدلل تلك الابيات الشعرية على ان السيّاب لم يكن متهافتاً على حب النساء ومفرطاً بكرامته لمجرد الوصول الى قلب امرأة ما أو التودد الى احداهن لسدِ نقص ما كان يعاني منه كما أدعى البعض[٥]. بل أجد أن بدراً كان مترفعاً عن ذلك بل كان ناقماً أحياناً على المرأة فلا يجدُ أفضل من قصة آدم وحواء، دليلاً على صنعها بالرجل وكيف جرّته الى الهاوية . ففي قصيدته (ثورة على حواء) نجد ذلك التصريح واضحاً :

حتى غدوتُ وما أرى إمرأةً الإ وثارَ الحقــد يضطرم

لي عند كل جميلـــةٍ ترَةٌ فمتى، وأينَ، وكيف أنتقمُ [٦]

---

[١] بدر شاكر السياب، الاعمال الشعرية الكاملة، ج٢، ص٣٣١.

[٢] المصدر نفسه، ص٣٥٤.

[٣] المصدر نفسه، ٢٣٤.

[٤] المصدر نفسه ، ٢٣٥.

[٥] لعبت بإتقان وها هي مفاتيحي، ص٧٥ .

[٦] بدر شاكر السيّاب، الاعمال الشعرية الكاملة ج١، ص٢٣٥.

ثم يضيف السيّابُ :

" لابد من ان القي ضوءاً على موقفي من المرأة واحساسي تجاهها، ليتم الفهم على وجهه الأكمل : قدت أمي ومازلت طفلاً صغيراً فنشأت محروماً من عطف المرأة وحنانها، وكانت حياتي وما تزال كلها بحثاً عمن تسد هذا الفراغ، وكان عمري انتظاراً للمرأة المنشودة، وكان حلمي في الحياة ان يكون لي بيت أجد فيه الراحة والطمأنينة وكنت أشعر انني لن أعيش طويلاً، لهذا وجب على القاريء أن يربط بين (رئة تتمزق) وكثير من قصائد الديوان " .[١]

وكانت نفس السياب تنطوي على حرمان كبير مكتوم، تنم عنه عاطفة رقيقة حزينة واحساس دائم بالاستعداد لحب امرأة بعيدة، وكانت تلك البيئة المثقلة بالحرمان والتقاليد التي تتعب وجدانه وقلبه تعزز احساسه بالعجز فيلوذ بالإنطواء ويلح بالشكوى فيبتدي حرمانه في حنينه المتواصل الى جسد امرأة :[٢]

حسناءُ يلهبُ عُريها ظمأي فأكاد أشرب ذلكَ العُريا

وأكاد أحطمه، فتحطمني عينان جائعتان كالدنيا

وتتكاثف لهفة السياب الى المرأة الى حنانها ودفئها بعد ان كان حنينه الى جسدها وتظل الشكوى المرأة نفسها . التهيؤ المكابر والصريح نفسه أحياناً للوقوع في أحضان المرأة وما تمنحه هذه الأحضان من دفء :

" لا تزيديه لوعة فهو يلقاك لينسى لديك بعض اكتئابه

قربي مقلتيك من وجهه الذاوي ترى في الشحوب إنتحابه

وقد أصبح شاعرنا السياب أسير هذا الحنين، وضحية لهذا الحرمان في قصائده حتى اعتاد على ذلك فكلما بدأ بقصيدة من قصائده أنساق إلى الاستعانة بذكرياته عبر غزل رقيق يضجُّ بالشكوى والحنين أياً كان موضوع القصيدة ودونما روابط نفسية عميقة، بحيث لا يلتفت في أحيان كثيرة إلى ضرورة التمهيد للنقلة من حالته النفسية المعتادة إلى الغزل وبالعكس، فنراه ينتقل فجأة من الحديث عن الموت ومناجاته ومحاكمة الحياة الصعبة إلى الغزل الذي يتلألأ في عيني امرأة من أجلها يدعو الموت إلى الرحيل . وتبدو لنا الصورة المثلى للطابع الإنساني للمرأة في شعر السياب اسمى رقيها في ملحمته الشعرية (المومس العمياء) إذ راح الشاعر يبرز لنا كيف دفع الفقر والجوع في العراق فتاة عمياء فقيرة لإمتهان الدعارة وهي اقسى

---

[١] ديوان اساطير، منشورات دار البيان . مطبعة الغري الحديثة في النجف، سنة ١٩٥٠، مقدمة الديوان.

[٢] الصورة الفنية في شعر السياب، إبراهيم جنداري، مجلة الأقلام، دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد، ع٦،حزيران ١٩٩٠، ص٩٥ .

الرسائل الناقدة للوضع السياسي والناقمة على الطبقة الفاسدة آنذاك وهي بهذا المعنى وهذا الاتجاه تقارب الصورة التي رسمها من قبله (الرصافي) للمرأة المرضعة التي هي أنموذج صريح وواضح لعمق المأساة الاجتماعية التي عانتها المرأة منذ ذلك الوقت والى الآن [١] .. يقول السياب في ملحمته الشعرية :

عمياء كالخفاش في وضح النهار، هي
المدينة،
والليل زاد لها عماها
والعابرون :
الأضلع المتقوسات على المخاوف
والظنون،
والأعين التعبى تفتش عن خيال في
سواها
وتعد آنية تلألأ في حوانيت الخمور :
متى تخاف من النشور
قالوا سنهرب، ثم لاذوا بالقبور من
القبور [٢]

وتزداد حجم المأساة والقسوة حين نعلم أن تلك الضحية المرأة لم تفقد بصرها فحسب بعد أن لحقته بفقدان اسمها الذي هو (هويتها):

حتى اسمها فقدته وأستترت بآخر مستعار
هي . منذ أن عَميت . (صباح)...
فأيّ سخرية مريرة ! [٣]

إن شخصية المومس أثارت اهتمامه بوصفها ضحية لظلم المجتمع وقسوته بفقدانها لكرامتها الإنسانية وليس لفقدانها بصرها، ومما ساعد الشاعر على التعمق في رسم ملامح تلك الشخصية هي خبرته الشخصية وتجربته في رسم صورة واقعية للعلاقات في المبغى، وساعده خياله الواسع على خلق تلك القصة المؤثرة إذ بطلتها مومس امتد بها العمر فأصبحت عمياء غير مرغوب فيها، ولم يكن هدف الشاعر الإشفاق على تلك المرأة بقدر ما كان هدفه تسليط

---

[١] ينظر: ديوان الرصافي، المجموعة الكاملة،ج١،ج٢، تق : عبد الصاحب شكر البدرائي، منشورات، دار مكتبة الحياة محمود حلمي، بيروت، بغداد، ط٦، ١٩٥٧، ٢٠٦ .

[٢] ديوان بدر شاكر السياب، المومس العمياء، ج٢، دار العودة بيروت، ٢٠١٦، ص١٤٤.

[٣] المصدر نفسه، ص ١٥٥.

الضوء على الشقاء البشري الذي لا مبرر له وتعرية الواقع الاجتماعي المزري والفاسد الذي نخر جسد الأمة، فلو كان العدل قائماً وسائداً المجتمع لزال كل الشقاء البشري، فالمومس ليست الضحية الوحيدة في هذا المجتمع الظالم بل هي صورة مصغرة لهذا الظلم الذي تعددت أشكاله ..

إن قصيدة (المومس العمياء) تعد مرحلة انتقالية في شعر السياب وعلامة فارقة في قصائده اذا جاز التعبير فهي تمثل مرحلة بين عهدين من عمر شعره اذ يمكن " ارجاعها الى نهاية المرحلة السابقة من حيث تركيبها ... انها بسيطة جداً تعتمد على تنويع بسيط في استعمال التفاعيل، ولكنها في الغالب تتكون من ابيات متساوية تتواتر فيها او تتوالى وتعتمد أسلوب التعبير المباشر"[١] وإن كانت في مجموعها تقوم على (رمز) ولعل قصيدته تلك من اكثر قصائده تخمة بالأساطير والرموز، الذي سنتبنيه في المبحث الثاني لاحقاً ..

[١] ديوان بدر شاكر السياب، ج١، ناجي علوش، المقدمة صفحة وو .

المبحث الثاني

رمزية المرأة في شعر السيّاب

لقد عمد السياب الى استخدام المرأة والأنثى بشكل عام رمزاً في شعره : إقبال، وفيقة، سليمة، ياسمين، صباح، عشتار، ... مثلما أستخدم الأسطورة ليتخذ منها رموزاً فأما الأسباب التي دعته الى استعمال الأسطورة في شعره يوجزها بقوله :

" كان الدافع السياسي اول ما دفعني الى ذلك، فحين اردت مقاومة الحكم الملكي السعيدي بالشعر اتخذت من الاساطير التي كانت زبانية نوري السعيد لا يفهمونها ستاراً لأغراضي تلك، كما اني استعملتها للغرض نفسه في عهد قاسم "[1] ويضيف، مما يدفعنا لإستخدام الأسطورة في الشعر ان الالفاظ فقدت معانيها الأصلية في كل المجتمعات البشرية القائمة اليوم، بينما ظلت الأسطورة محتفظة بجديتها ومعناها الأصيل، ويرى السياب " ان استعمال الأسطورة في الشعر ليس جديداً على الادب العربي فلعل شاعرنا العربي الكبير أبا تمام اول من استخدمها بين كل شعراء العالم، ولو سار الشعراء العرب من بعد ابي تمام على خطه الشعري لكان بيننا اليوم الكثيرون ممن يضارعون (ت . س إليوت) و(ايديث سيتويل) وسواهما في حسن استخدام الأسطورة "[2] .

أما المرأة فهي ضمن الرموز الملهمة والاساسية التي لجأ اليها السياب في شعره فضلاً عن الرموز الأخرى كالرموز المستمدة من الأرض والواقع الإنساني .. وهناك الرمز التأريخي المتصل بحضارة وادي الرافدين، الى جانب رموز أخرى تتصل بالواقع وبالحياة بكل ما لهذه الرموز من عمق شعبي وهي رموز تتصل بفكرة التعبير عن الحياة، وهناك : ايضاً رموز الواقع الاجتماعي (النساء، المبغى) كما اسلفنا بإستعراض بعض منها في المبحث الأول وتحديداً في قصيدة (المومس العمياء) . وقد بدت الرمزية بطابعها الإنساني واضحة في بعض من قصائد (انشودة المطر) وهي تستعير ذلك الصوت التفجعي الرثائي الذي بكت به (عشتار) صبيها (تموز) يوم قتله الخنزير البري اذ استعاض السياب عن الأرض بـ (عشتار) التي هي رمز الأرض، عندما أصبحت وحيدة بعد رحيل الاله (بعل) عنها، وهي صورة أخرى من صور (تموز) المجدبة، اذ لم يخصبها كما يخصب المطر الأرض، وبدلاً من اعلان

---

[1] كتاب السياب النثري، جمع واعداد وتقديم حسن الغرفي، كلية الاداب، فاس، د.ت ص١٩٧.

[2] المصدر نفسه، ص١٩٨.

الحياة بمولد الشمس والنور والدفء يركض الموت في الشوارع معلناً ولادة الظلام، رمز الموت والبرودة والشقاء .. وفي أجواء الموت هذه تموت الشمس نفسها، مصدر الدفء والنور وواهبة الحياة لأنها تفقد هي نفسها حرارة الحياة بإنتصار الصقيع والسحب المتجمدة التي انحبس فيها المطر.[١] إلا ان الشاعر مؤمن بالأنبعاث، فهو يشعر أن بإمكانه أن يتحدى صور الموت المهيمنة طالما استطاع ان يحقق لنفسه الخلود بإستمرار وجوده في ابنه، وبإتحاده بالأرض تمتد صور الانبعاث اليها، فيدخل الدفء الى السجن الحديدي، ويدب الشباب في دم الشاعر ويعود الاخضرار الى الطبيعة، يقول في قصيدته (مرحى غيلان) :

. (بابا ... بابا ..)

ينسابُ صوتَكَ في الظلامِ، إليَّ كالمطر الغضير،

ينسابُ من خلل النعاس وأنت ترقدُ في السرير

من أي رؤيا جاء ؟ أيَّ سماوةٍ ؟ أي أنطلاق ؟

... وأظلُّ في رشاش منه، أسبح في عبير .

فكأن أودية العراق

فتحت نوافذ من رؤاك سهادي : كلُّ وادي

وهبتهُ عِشتارُ الأزاهرَ والثمار، كأنَّ روحي

في تربة الظلماءِ حبةُ حنطةٍ وصداكَ ماءُ .

أعلنتُ بعثي يا سماءُ

هذا خلودي في الحياةِ تكنُّ معناهُ الدماءُ .[٢]

ونجد تلك الاطلالة الإنسانية الرمزية للمرأة في أكثر قصائده المفعمة بالألم والأمل ففي قصيدة (حديقة وفيقه) جمع بين الاثنين (المكابر والانسان) وسلط الضوء على تلك العلاقة الجدلية بينهما، ف (وفيقه) المرأة سواء أكان اسمها تغطية لإسم اخر ام لا،وسواء أكانت وفيقه الحقيقية قد ماتت فعلاً أم لا، فإن بدراً قد أقام لنا أحجيةَ شعرية تتصل بحياته فقد قرن بها مرحلتين من حياته، مرحلة صباه ومرحلة اول مرضه الذي بات يأتيه عبر أصوات تبعث من القبر . أصوات أراد الشاعر بها ان يوهم نفسه بأنه يسمع مناغاة الحبّ في عالم سفلي إذ يلتقي بـ

---

[١] ينظر: بدر شاكر السياب، ريتا عوض، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٣، ١٩٨٧، ص٥٧.

[٢] ديوان انشودة المطر، ٣٢٤.

(وفيقه) في حديقة يلتقي في جوها صبح وليل وخيال وحقيقة كحديقة (برسيفوني) حبيبة اله العالم السفلي ولسوف يقول يقول في حدائق (وفيقه) التي فرغ منها في أواسط آب عام ١٩٦١:

بين نهديك إرتعاشُ يا وفيقة

فيه بردُ الموتِ باكِ

وأشرأبت شفتاكِ

لهمسانِ العطر في ليل الحديقة .[١]

ان تلك الصورة التي رسمها السياب لوفيقة انما هي امتداد لصورة تموز وعشتار التي رسمها لنا من قبل،[٢] ومن يتتبع شعر السياب في صعوده وهبوطه يجد ان السمة الغالبة في اشعاره هي الوضوح والمباشرة بل والتقريرية في أحيان أخرى، وهو باستعماله الرمز والجنوح نحو استعماله وتطعيمه في قصائده انما يسعى من وراءه الى تغطية تلك المباشرة وذلك الوضوح،بل وان استعماله للرموز التي يكتنفها بعض الغموض ربما يكون ناشئاً عن قصور في التعبير أو صعوبة في إدراك مدلول اللفظة .[٣]

نجدُ ذلك جلياً في هذه القصيدة (التأبينية) التي أبّنَ نفسه في أكثر من مرثية :

يا قارئاً كتابي

أبكِ على شبابي

شاهدةٌ بين القبور تبكي

تستوقف العابر يا صِحابي

غضوا الخطى ولتصمتوا ان القرون تحكي

في جملةٍ خُطَت على التُرابِ [٤]

---

[١] ديوان بدر شكار السياب، المعبد الغريق، قصيدة حدائق وفيقة، ص١٢٩.

[٢] ينظر : بدر شاكر السياب، دراسة في حياتة وشعره، د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩، ص٤١٣-٤١٦ .

[٣] هذا هو السياب، مدني صالح، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨١، ص١١٣ .

[٤] التركيب اللغوي لشعر السيّاب، د. خليل إبراهيم العطية، دار المعارف للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٦، ص٥٠.

ونجد مقتطفات من شعره تضمنتها دواوينه الشعرية تسير بهذا الاتجاه مستمدة الفاظها من واقع الحياة اليومية في زمانه والتي كانت متداولة آنذاك ويرى ان ما شاب شعر السياب من مظاهر (الدارجة) يتخذ نمطين :

١- نمط إليه بدر، واعترف به، فنصّ عليه، كما فعل عند استعماله (البلم) في (أساطير)، أو تكراره لكلمة (خطية) في قصيدته (غريب على الخليج) أو اشارته الى اغنية الأطفال في (شناشيل ابنة الجلبي) :

يا مطرا يا شاشة

عبّر بنات الباشا

يا مطرا يا حلبي

عبّر بنات الجلبي

٢- أما النمط الآخر، فقد تسلل الى شعره بدون شعور منه به، وهو كثير الورود في شعره .

وعلى الرغم من وجود بعض تلك الإخفاقات في رسم تلك الصورة الشعرية التي تشوبها الخطابية والتقريرية الا اننا لا ننكر بأن الشاعر السياب حين يعمد الى استخدام المرأة رمزاً في قصائده انما يكسبها طابعاً انسانياً متفرداً واهمية خاصة، هكذا نجده في رائعته (انشودة المطر) التي استهلها بمخاطبة امرأة لم يسمها فهي ليست امرأة عادية لأنها تحمل دلالات فكرية متعددة مجسدة في صورة حسية غنية بالأبعاد المعنوية والفكرية، فعيناها غابتا نخيل، وهو أكثر أنواع الشجر وجوداً في ارض العراق وأكثرها ثماراً .. وقد أبهرنا بدرٌ حين خاطب أرض بلاده رامزاً إليها بجنس المرأة .[١] وحقيقة الأمر إن الشاعر السياب يختار رموزه إختياراً واعياً، فلا يمكن ان تكون صورة ما رمزاً لأية فكرة أو لأية مجموعة من الأفكار مالم تكن متطابقة مع ما يبطنه ذلك الشاعر او الاديب، فالصورة الرمزية ترتبط بمدلولاتها ارتباطاً حتمياً ولايمكن للرمز ان يكون ذاتياً او شخصياً لكنه في أساسه جماعي وانساني، بمعنى انه يحمل الدلالة نفسها بالنسبة لكل انسان، ولعل استخدام رمز المرأة للدلالة على الأرض والوطن من أفضل الأمثلة على ذلك، فقد احسن الانسان منذ عصور بعيدة ان هناك ارتباطاً حقيقياً بين المرأة والأرض، فردت الاساطير ان الانسان خلق من تراب الأرض ويعود بعد موته اليها

[١] ينظر، بدر شاكر السياب، ريتا عوض، ص٣٣.

بإنتظار الانبعاث والولادة فعادلت بذلك بين الأرض وبين المرأة الأم، يرسم لنا السياب تلك الصورة الجميلة في مطلع قصيدته الآنفة الذكر (انشودة المطر) :

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبسمان تورق الكروم
وترقص الأضواء ... كالأقمار في نهر
يرجُّه المجذاف وهناً ساعة السحر
كأنما تنبض في غوريهما النجومْ ..
وتغرقان في ضباب من أسىً شفيفْ
كالبحرِ سرّح اليدين فوقه المساء
دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف
والموت، والميلاد، والظلام، والضياء،
فتستفيق ملء روحي، رعشة البكاء
ونشوة وحشية تعانق السماء
كنشوة الطفل اذا خاف من القمر ! [1]

لقد عزز السياب دفاعه بالترميز للأنثى واستخدام للإسلوب الايحائي بقوله :

(ان هناك شيئاً من الغموض في بعض القصائد، ولكنني لست شاعراً رمزياً وقد كنتُ مدفوعاً الى ان أغشي بعض قصائدي بضباب خفيف، وذلك لأنني كنت متكتماً، لا اريد ان يعرف الناس كل شيء عن حبيّ الذي كانت كل قصائد هذا الديون (اساطير) صدى له، فقد كانت (موحية) هذا الديوان، تغضب أشد الغضب اذ انا ذكرت شيئاً عن قبلاتنا ومواعيدنا، وكثيراً ما فارقت بعض القصائد التي كانت تشير الى شيء تأبى هي أن يعرفه الناس [2] .

وقد تأكد لي بحثياً فيما بعد صدق ما ذهب إليه السيّاب اذ وفاته ومرور أكثر من عقدين من زمن تصرّح تلك (الموحية) كما أسماها السيّاب وهي الشاعرة (لميعة عباس عمارة) بقولها " يتساءلون كثيراً، هل أحبّ بدر لميعة ؟ وهل أحبت لميعة بدراً ؟ وأنا أقول : أية غرابة في أن يحبُّ شاعر شاعرة ؟ وأنا تحدثت عن صداقتي لبدر في مناسبات سابقة، وكنت صادقة فيما

---

[1] ديوان بدر شاكر السياب، ج٢، بدر شاكر السياب، دار العودة بيروت، ٢٠١٦،ص١٢١

[2] كتاب السياب النثري، حسن الغرفي، ص١٢.

قلته، ولم ولن اصحح أية عبارة قلتها، وتضيف، لقد كتب لي ديواناً كاملاً هو (أساطير) كله لي، عدا قصيدة (عينان زرقاوان) . وقد ارتبط اسمي بإسم بدر لأننا كنا معاً في االجامعة لمدة سنتين وفي تواصل دائم في حضورنا الى الكلية . فكل الفرص هي ندوات أدبية، وكل التظاهرات السياسية مهرجانات شعر "[١] هكذا تجلت الصورة الإنسانية للمرأة بكل معانيها اشعار السياب وقصائده التي لايمكن محو آثارها على الذائقة الشعرية وان تعاقبت الأعوام والشهور .

[١] اعترافات شاعرة، لميعة عباس عمارة، مجلة غادة، مؤسسة الوطن العربي للنشر، باريس، ع٣، ١٩٨٦، ص٢٣.

الخاتمة

لقد قيل الكثير عن اثر المرأة في حياة السياب وشعره بل وعن اثر السياب وشعره في المرأة، فهمنهم من مال الى ان المرأة هي الشغل الشاغل في حياة السياب وانه أراد من خلال شعره ان يسد النقص الذي كان يعانيه في جوانب حياته المختلفة جراء ما كان يعانيه من إحباطات وآلام ومتاعب جسدية ومظهرية فصوروه مهرولاً بل لاهثاً وراء خيال امرأة أو طيف يحمل صورة امرأة، اما الرأي الآخر فذهب بإتجاه مغاير فقد رأى بأن السياب قد منح المرأة قدراً واسماً لامعاً بعد إن نُسيت أوكادت أن تنسى، وذهبوا إلى ابعد من ذلك فصورا أن بعض تلك النسوة رحن يُلصقْن اشعار السياب بأسمائهن وشخوصهن كي يكتسبن الشهرة ويذاع صيتهن من خلال شهرة السياب في شعره، اما ما توصلت اليه من خلال بحثي هذا ان السياب لم يكن في كفة على حساب كفة أخرى بل وجدته متوازناً ومتزناً على الرغم مما كان يعاني، فقد كان شاعراً وإنساناً معتداً بنفسه واثقاً من خطوته كما أي انسان يعيش الحياة بكل تناقضاتها يحب ويكره، ينجح ويفشل، يفرح ويحزن وبالتالي فهو مزيج من كل هذه الطروحات فلم يكن متخاذلاً امام المرأة يستجدي عطفها ولا مجافياً لها حد الانطواء، فأستطاع السياب ان يعطي للمرأة بالقدر الذي أراد ان يأخذ، وعلى الرغم مما قدر له من عمر قصير الا ان المرأة اخذت مساحة كبيرة في خارطة شعره وهي تحمل طابعاً إنسانيا سيظل خالداً على مر العصور، هذا ما حاول البحث ان ينقب عنه ويستكشفه، فعسى ان أكون قد وفقت في ذلك، والله من وراء القصد ..

ثبت المصادر

- اعترافات شاعرة، لميعة عباس عمارة، مجلة غادة، مؤسسة الوطن العربي للنشر، باريس، ع٣، ١٩٨٦.
- بدر شاكر السياب، الاعمال الشعرية الكاملة، ج١، تحق : علي محمود خضير، تق : ادونيس، منشورات الرافدين، منشورات تكوين، لبنان، الكويت، ط١، ٢٠٢٠ .
- بدر شاكر السياب، دراسة في حياتة وشعره، د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩.
- بدر شاكر السياب، ريتا عوض، ط٣، ١٩٨٧، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت
- التركيب اللغوي لشعر السيّاب، د. خليل إبراهيم العطية، دار المعارف للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٦.
- ديوان اساطير، منشورات دار البيان . مطبعة الغري الحديثة في النجف، سنة ١٩٥٠، مقدمة الديوان .
- ديوان الرصافي، المجموعة الكاملة،ج١،ج٢، تق : عبد الصاحب شكر البدرائي، منشورات، دار مكتبة الحياة محمود حلمي، بيروت، بغداد، ط٦، ١٩٥٧ .
- ديوان انشودة المطر .
- ديوان بدر شاكر السياب، المومس العمياء، ج٢، دار العودة بيروت، ٢٠١٦ .
- ديوان بدر شاكر السياب، ج١، ناجي علوش، المقدمة صفحة .
- ديوان بدر شاكر السياب، ج٢، بدر شاكر السياب، دار العودة بيروت، ٢٠١٦ .
- ديوان بدر شكار السياب، المعبد الغريق، قصيدة حدائق وفيقة .
- الصورة الفنية في شعر السياب، إبراهيم جنداري، مجلة الأقلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ع٦،حزيران ١٩٩٠.
- كتاب السياب النثري، جمع واعداد وتقديم حسن الغرفي، كلية الاداب، فاس، د.ت .
- كتاب السياب النثري، حسن الغرفي، لعبت بإتقان وها هي مفاتيحي، نزار قباني، ط١، ١٩٩٠، منشورات نزار قباني، بيروت، منشورات تكوين لبنان، الكويت، ط١،٢٠٢٠ .
- هذا هو السياب، مدني صالح، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨١.